مكتبة

رشيد الضعيف في رواية «تبليط البحر»
الخروج الناجح من العفويّة إلى الحرفة

رواية «تبليط البحر» (رياض الريس للكتب والنشر، بيروت: ٢٠١١) هي الرواية الأولى التي يكتبها رشيد الضعيف مستنداً إلى وقائع تاريخية محددة، ويستخدم فيها أسماء معروفة على مستوى النهضة العربيّة، مثل اسم الشدياق، الذي يمرّ في الرواية كنموذج للتحولات الدينية والانتقال بين الطوائف، وهو ما كان طابع لبنان (والبلاد السورية)، خصوصا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وهي الفترة التي انتعش فيها حسّ التنوير، من خلال الاتصال بالغرب عن طريقين: الإرساليات التبشيرية، التي جسدت حضورها بإنشاء الجامعة الأمريكية في بيروت، التي توظف كأحد الأمكنة المركزية في الرواية، والهجرة إلى الغرب ذاته، لطلب العلم، أو هربا من مجموعة من الظروف التي تغمر البلاد السورية، وعلى رأسها الحالة الاقتصادية والاحتراب الطائفيّ، الذي عمل التنوير أساسا على محاربته من خلال نشر المفهوم العصريّ للمواطنة.

ومع الأسماء المعروفة والتواريخ الصحيحة للأحداث، مثل اسم جرجي زيدان، يعمد الكاتب، بحرفية عالية، إلى بناء رواية تقوم معظم أحداثها على شخصية أساسية متخيلة، وإن كان إتقان السرد وربط علاقاتها بالشخصيات الحقيقيّة، يكاد يوحي بوجود تاريخيّ لهذه الشخصية، وهي شخصية فارس منصور هاشم، خصوصا وأن الرواية لا تتردد في طرح اسم فارس منصور الشدياق (قبل أن يضيف اسم أحمد في مقدمة اسمه بعد أن أسلم)، كرديف، باعتباره شقيق أسعد الشدياق، الذي تراه الرواية أول شهيد للحداثة الدينية في سوريا. كما أنها تحمّل الشخصية الرئيسية اسم عائلة معروفة في جبل لبنان، الذي هرب منه والده إلى بيروت، خلال حرب الجبل التي دارت في ذلك الوقت، وامتدت إلى دمشق أيضا، وتضيف إلى ذلك

اسم صديق آخر، رافق الشخصية إلى مصر، ينسب إلى عائلة درزية معروفة أيضا.

هذه التركيبة تشكل جزءا من «حرفة» كتابية بات الكاتب يتقنها بعد ثلاث عشرة رواية سابقة، نالت حظا كبيراً من الاحترام النقدي، بسبب خصوصية أسلوبها الذي يرتبط بحسّ عال من السخرية في التعامل مع الواقع، وهو ما يعتبره بعض النقاد نوعا من «الضحك على الألم» بهدف تحمله. وهذه الروايات غالباً ما استندت إلى العفوية في سرد أحداثها، مع حفاظها على ما يتطلبه الفنّ الروائيّ من ضبط.

يقف هاجس الحداثة وراء كلّ تفاصيل الرواية، أو هو يبرر أحداثها، حتى ما يمكن اعتباره غريبا أو شاذا منها. وفي بعض لحظات السرد، يعود الكاتب، في فقرات تكاد تكون معترضة، ليذكر بما هو عليه الحال في الزمن الحالي، كما يفعل عند ما قاله جبران خليل جبران بعد ذلك الزمن، أو ما خاطب به المحيط الأطلسي أحد شعراء العامية، أو ما غناه وديع الصافي عن الهجرة بعد عقود، ما يوحي بأن شيئا منذ ذلك الزمن لم يتجدد، وربما ليمهد لما ستنتهي إليه تلك الحماسة التي رافقت جيل الحداثة الأول، وهو يخطو إلى العلم (لا المعرفة فقط) بقوة، ويتطلع إلى أن تصبح بلاده شبيهة بما أوصلت إليه حداثة حققها الغرب على مستويات عدة، بعضها يمكن أن يكون صادما لما اعتاد عليه المجتمع، مثل استبدال الملابس التقليدية، أو تجاوز بعض التقاليد الاجتماعية، كما حدث مع والد فارس، الذي ذهب وحيدا ليخطب زوجته، وكما حدث في زواجه أيضا، وبعضها الآخر يكون مفرحا للعين، مثل البنايات العالية، والإضاءة الساطعة، والشوارع الممهدة.

والحوار النظري في الرواية، يأخذ حيزا كبيرا من الاهتمام الثقافيّ لدى الشباب الذي يتطلع إلى التجديد، باعتباره نخبة وحسب، تحارب الخرافة السائدة والعادات غير الصحية، وغير ذلك مما يفرضه الجهل. وجاء نموذج هذا الحوار (الذي يمكن اعتباره خاصاً) في التعامل مع نظرية داروين، التي كانت جديدة ومثيرة لاهتمام نفر قليل في ذلك الوقت، بينما تحظى بعداء من المجتمع، لأن هناك من يتهمها بأنها ضدّ الدين، ومع ذلك صارت حلية الشباب المتطلع إلى الجديد، والذي يعتبر الحماسة لها جزءا من إنجازه، أو يرى فيها سبيلاً إلى هذا الإنجاز.

إلا أن الرواية لم تقف عند ذلك، بل ركزت على «الفعل» العلمي، الذي ينظر إليه الشباب كسلاح يساعد في تحديث بلادهم، خصوصا حين تكون جدوى الفعل العلمي ملموسة ومجرّبة، كما هو الحال في دراسة

الطبّ التي لجأ إليها الصديقان فارس هاشم وجرجي زيدان، بتشجيع من والديهما اللذين تحمسا لذلك، بسبب تجارب شخصية مريرة من ناحية، وبسبب ما أتيح لكلّ منهما من احتكاك بالجيل المتنور (بالأسماء الحقيقية) من المرسلين الغربيين، ومن أبناء البلد الذين أخذوا شيئا من علم الغرب.

ويبدو أن الحماسة النهضوية في ذلك الوقت كانت قادرة على أن تبرر أي سلوك، مهما بلغت غرابته، لذلك سمحت للرواية بأن تميل إلى شيء من الغرائبيّة التي تصور واقعية كانت بالفعل تنتمي إلى ذلك الزمن. لكن الأسلوب الذي اختاره الكاتب للسرد أحال ما هو عاديّ إلى قدرة على إنتاج الدهشة، لدرجة أن الحديث عن رجل يحلق شاربه يثير استغراب المتلقي دون وعي، قبل أن يفطن إلى عادية ذلك (الآن) ويضحك. وهذا أسلوب كان من السهل أن ينطبق على ما هو غريب بالفعل، مثل موضوع سرقة جثث الموتى من ليتدرّب عليها طلاب الطبّ في الجامعة الحديثة، في دروس التشريح التي كانت تشكل الجزء النهائيّ من امتحان لا يجري في الجامعة، وإنما في الآستانة، ودونه لا ينجح طالب الطب، ولا يسمح له بمزاولة المهنة في عموم السلطنة.

سرقة الجثث التي وظّفها الكاتب بنجاح كبير، أضافت إلى الرواية تعميقا لفكرة الحداثة التي تطرحها، وأوحت بأن روّادها كانوا مستعدين لبذل النفس في سبيل تحقيقها في وطنهم، كما أضاف إليها صبغة درامية عزّزت الأحداث بعنصر من التشويق، يكاد يكون غريبا على القارئ المعاصر، الذي لا تشغله الحاجة إلى الجثث من أجل استكمال العلم، كما كانت تشغل بيروت ذات زمن (وسوريا كلّها)، ما حوّلها إلى قضية ينفعل معها المجتمع من ناحية، فيعمل أفراده على حماية جثث الأقربين، بحراستها مدة تكفي لتعفنها في القبر، ما يجعلها غير صالحة للسرقة، بينما يضحي رسل الحداثة، الذين نذروا عذابهم لنهضة الأمة، بجثث من يعزّون عليهم، وهو ما فعله فارس بجثة عمته، التي استبدلها بتابوت فارغ، وكما كاد يفعل مع جثة والدته، لولا أن استمرار إضراب طلبة الطبّ حماها، في زمن لا تستطيع فيه الجثث أن تنتظر.

لكن توظيف هذه الظاهرة كان أبلغ، في مصير فارس نفسه، وهو المصير الذي تعبر به الرواية عن وجهة نظرها في تيار الحماسة الذي كان يسود الشباب في ذلك الوقت، والذي جعل الأصدقاء الثلاثة يقسمون، خلال رحلتهم إلى مصر، وقبل أن يفترقوا، بأن يعودوا إلى وطنهم، بعد أن يتزوّدوا بالعلم،

حتى يساهموا في نهضته.

إن النظر إلى الرواية كمجموعة أحداث تروي وقائع تاريخية، يفقدها كثيراً من قيمتها، فالرواية لم تكتف برصد تلك الأحداث فقط، وإنما تابعت التطور المادي للمدينة، فبدأت بما هو سلبيّ منها، مثل المآسي التي أصابتها بعد الحرب الأهلية والتهجير، والجفاف الذي تعرّضت له سنوات عجافا، والجراد الذي أكل الأخضر واليابس، والفيضانات التي جرفت كلّ شيء، ثم تطرّقت إلى ما يشكل خطوات إيجابية في سبيل التحديث، مثل افتتاح المدارس، والجامعات، وجلب المياه العذبة من نبع بعيد إلى بيوت المدينة بالطرق الحديثة، وشقّ بعض الطرق حتى تصبح مؤهلة لسير العربات، كل ذلك في جوّ من التفاؤل بالمستقبل.

هذا التفاؤل جعل البطل مطمئنا إلى المستقبل بشكل رومانسيّ، فظنّ ـ مثلا ـ أن تعرّضه للغرق نوع من البطولة، ما دام يدافع عن كرامته، ضدّ التمييز الذي واجهه، قبل أن يصل إلى بلاد يبحث فيها عن علم يساهم في رقيّ بلاده، ويدافع عن حقّه في ركوب الدرجة الأولى في الباخرة، لأنه دفع ثمن تذكرتها، بغضّ النظر عن لونه المختلف عن بقية ركابها الغربيين. وقد أتاح هذا المشهد مكانا للحديث عن العذاب الذي كان السوريون يتكبدونه في طريقهم إلى البلاد الجديدة، التي يتصورونها أرض السمن والعسل، كما أنه مهد لما سيواجهونه عندما يصلون، وهو ما واجهه فارس هاشم بالفعل من عذاب، أوصله إلى السجن غير مرّة، وإلى حرمانه ممن أحبّ، غير مرّة أيضا، ثمّ دفعه إلى إثبات ولائه للبلاد التي تعلّم فيها، بالالتحاق بالجيش، ما ساهم بعد ذلك في تغيير جذريّ في حياته.

وتعتني الرواية إضافة إلى ما هو ماديّ بتلك المحطات الفكرية المتنوعة التي سادت مجتمعا كان يصحو لتوّه من سبات استمرّ قرونا عديدة، وهي محطات قد يبرز منها ما جاء به الغرب من توجه نحو العلم، ونحو الحرية الفكرية، حتى فيما يتعلق بالحركات الدينية الجديدة، متمثلة بالبروتستانتية التي كانت بعض الفئات تعتبرها خروجا على الدين القويم، لكنها لا تتوقف عند هذه الحدود التي تعتبر عامة بشأن التنوير، وإنما تضيف إلى ذلك صحوة قومية ـ تأثرا بنهوض القوميات في الغرب ـ تمثلت أساسا في العمل على تحديث اللغة، التي تعتبر عنصرا أساسيا في التوجه القومي، من أجل أن تستعيد مكانتها في المجتمع الحديث، وهو ما جاء على ألسنة بعض علماء اللغة (مثل المعلم بطرس البستاني) من ناحية، وعلى ألسنة من يدرسون الطبّ أيضا، ممن كانت الثقافة الأدبية تشكل جزءا من

تأسيسهم، وهو أخيرا ما انتهى إليه جرجي زيدان، طالب الطبّ الذي فصل من الجامعة في بيروت، بسبب موقف فكريّ، فتحوّل إلى الدراسة في القاهرة، ليصبح واحداً من أهم الأسماء في حياتها الثقافية.

إن المادة التاريخية والواقعية التي قام بناء الرواية عليها أقرب إلى الجفاف، ففيها وجود عثماني مهترئ وقاس، وتدخل غربيّ، وفيها دراسة طبّ وتشريح وسرقة جثث، وفيها جفاف وجراد، وأمراض لا تعالج بسهولة، وفيها هجرة وموت، كلّ ذلك إلى جانب طموحات هي أقرب إلى الأحلام الفردية التي تكاد تكون منقطعة عن الواقع، لكن القدرة على السرد، التي توفرت للكاتب، استطاعت أن تقدّم ذلك كله في انسياب سلس، يكاد يكون همسا مقنعاً، هو أهم ما يجعل هذه الرواية ممتعة عند القراءة.

مع ذلك، فإن نهايتها تكاد تكون سخرية صريحة من ذلك الحلم الرومانسي القديم، يدين ما انتهى إليه في الواقع المعاصر: إن الشاب الذي ساهم في سرقة الجثث من أجل العلم، هو ذاته الذي بادر إلى الهجرة من أجل مزيد من العلم، بعد أن تعهد بالعودة لخدمة بلاده، وهو ذاته الذي حقق نجاحا باهرا في المهجر، بإرادته الصلبة، ونال شهرة عالمية في مهنته، وهو ذاته الذي اختار أن يعود إلى وطنه، ليستقرّ ويخدم، وأعدّ لذلك جيدا، بالزواج وشراء البيت، وبإعلام صديقه الذي أقسم معه، لكن كلّ ذلك انتهى نهاية عبثية صارخة، عندما مات فجأة، في الطريق إلى تحقيق وعده، وعندما لم يستطع أي من نسله أن يحقق ذلك الحلم، حتى في وطن دون طوائف، ما يحفز حفيده جوان على الهجرة النهائية، لأنه لا يطيق مثل هذا الوطن الذي لا يتغير.

وليد أبو بكر

GOETHE INSTITUT

فكروفن

المجلة الألمانية للتبادل الثقافي

يرجى زيارة موقعنا على الإنترنت: www.goethe.de/fikrun
للحصول على مجلة «فكروفن» النسخة الإلكترونية
أو لتقديم طلب الإشتراك للحصول على النسخة المطبوعة